

الكلام يستحسن شعراً أو يستجيد نثراً ، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ ، فيقول : حلو رشيق ، وخسن أنيق ، وعذب سائغ ، وخلوب رائع ، فاعلم أنه ليس يُنبئك عن أحوالٍ ترجع إلى أجراس الحروف ، وإلى ظاهر الوضع اللغوي ، بل أمرٍ يقع من المرء في فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده .^(١)

ويذهب الجرجاني إلى أبعد من ذلك فيقرر أن هناك ما قد يُتوهم أن الحسن أو القبح فيه لا يتعدى اللفظ ، والحقيقة على خلاف ذلك ، ويمثل ببعض الفنون البديعية التي سميت فيما بعد بالمحسنات اللفظية ؛ كالسجع والجناس ، فيحلل سرّ الجمال فيها ، ويربطه بالمعنى الذي استدعاهما ، ويقول قولاً ليت البلاغيين تمسكوا به من بعده ، إذاً لكان أدبنا في عصور الدول المتتابعة في منجى من كثير مما شابه من زخارف لفظية فارغة ، ومن صنعة لم تكن ليستدعيها المعنى ، وإنما كانت على العكس متكلفة مفروضة على المعنى فرضاً أساء في أكثر الأحيان إليه . يقول الجرجاني : « وما هنا أقسام قد يُتوهم في بدء الفكرة ، وقبل إتمام العبرة ، أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس ، إلى ما يناجي العقل فيه النفس ، ولها

(١) أسرار البلاغة : ٤